رسائل تلّغرافيّة
(٣٢)

الصِّبْغَةُ الشّرْعِيَّةُ وَأَصْلُ الدِّينِ

كتبه
الدكتور عيد أبو السعود الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده، أما بعد: فقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

قال ابن منظور في: «لسان العرب» (٨/ ١٩٦-١٩٧):

«الصبغ والصباغ ما يُصطبغ به من الإدام، ومنه قوله تعالىٰ في الزيتون: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]؛ يعني: دهنه وخلاصته، وهو الزّيت، والصبغ: الغمس، وصبغ الثوب والشّيب ونحوهما، والصباغ: معالجة الصبغ، وثياب مصبّغة، شدّد للكثرة، وفي الحديث: «فيُصبغ في النار صبغة»؛ أي: يُغمس فيها، كما يغمس الثوب في الصبغ، والصبغ في كلام العرب: التغيير، ومنه صبغ الثوب إذا تغيّر لونه وأُزيل عن حاله إلىٰ حال سواد أو حُمْرة أو صفرة، وقيل: هو مأخوذ من قولهم: صبغوني في عينك وصبغوني عندك؛ أي: أشاروا إليك بأنّي موضع لما قصدتني به.

وصبغة اللَّه: دينه، ويقال: أصله، والصّبغة: الشريعة والخلقة، وقيل: كلّ ما يُتقرّب به إلىٰ اللَّه، فهو الصّبغة، فصبغة دينه وفطرته، قال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

قال الفرّاء: إنّما قيل صبغة؛ لأنّ بعض النصارىٰ كانوا إذا وُلد المولود جعلوه في ماء لهم كالتطهير فيقولون: هذا تطهير له كالختان، قال اللَّه ﷻ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ يأمر بها محمدًا ﷺ، وتصبّغ فلان في الدين تصبّغًا وصِبغة حسنة» اهـ.

قلت: وقال القرطبيّ في: «الجامع لأحكام للقرآن» (٢/ ١١٠):

«قوله تعالىٰ: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ﴾، قال الأخفش وغيره: دين اللَّه، وهو بدل: ملّة، وقال الكسائي: وهي منصوبة علىٰ تقدير: اتّبعوا، أوْ علىٰ الإغراء؛ أي: الزموا هذا الدين، وروىٰ شيبان عن قتادة قال: إنّ اليهود تصبغ أبناءهم يهودًا، وإنّ النّصارىٰ تصبغ أبناءهم نصارىٰ، وإن صبغة اللَّه الإسلام، وقال مجاهد: أي: فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها.

قال أبو إسحاق الزجّاج: وقول مجاهد هذا يرجع إلىٰ الإسلام؛ لأن الفطرة ابتدَاء الخلق، وابتداء ما خلقوا عليه: الإسلام، وروي عن مجاهد أيضًا والحسن البصري وقتادة: الصبغة الدين، وأصل ذلك: أنّ النّصارىٰ كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمّونه المعموديّة، يقولون: هذا تطهير لهم.

وقال ابن عباس: هو أنّ النصارىٰ كانوا إذا وُلد لهم ولد فأتىٰ عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم يقال له ماء المعمودية فصبغوه بذلك ليطهروه، كذلك الختان؛ لأن الختان تطهير، فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانيًّا حقًّا، فردّ اللَّه تعالىٰ ذلك عليهم بأن قال: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: صبغة اللَّه أحسن صبغة وهي الإسلام، فسُمّي الدين صبغة استعارة ومجازًا؛ من حيث تطهر أعمالهم وسمته علىٰ المتديّن، كما يظهر أثر الصّبغ في الثوب.

وقيل: إنّ الصّبغة الاغتسال لمن أراد الدّخول في الإسلام بدلًا من معمودية النّصارىٰ ذكره الماورديّ، وعلىٰ هذا التأويل يكون غسل الكافر واجبًا تعبّدًا؛ لأن معنىٰ ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ غُسل اللَّه؛ أي: اغتسلوا عند إسلامكم الغسل الذي أوجبه اللَّه عليكم، وبهذا المعنىٰ جاءت السنة في قيس بن عاصم، وثُمامة بن أثال حين أسلما، روىٰ ابن ماجه في «صحيحه» [١٢٣٨] أن ثمامة أُسر فمرّ به النبيّ ﷺ يومًا فأسلم، فبعثه إلىٰ حائط أبي طلحة، فأمره أن يغتسل، فاغتسل وصلىٰ ركعتين فقال ﷺ: «**حسن إسلام صاحبكم**»، وخرج أبو حاتم بن حبان [١٢٤٠] أيضًا عن قيس بن عاصم: أنه أسلم فأمر النبي ﷺ أن يغتسل بماء وسدر» اهـ.

قلت: والحديث الأول رواه أيضًا ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٥٣)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١/ ١٧١)، وأصل الحديث عند البخاري (٤٦٢)، ومسلم (١٧٦٤)، والحديث رواه الترمذي في «سننه» (٦٠٥) وقال: حديث حسن، وأبو داود في «سننه» (٣٥١).

وقال القرطبيّ في: «جامعه» (١٤/ ١٨-١٩):

«قوله تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قال الزجّاج: منصوب بمعنىٰ: اتبع فطرة اللَّه، قال: لأن معنىٰ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتبع الدين الحنيف، واتبع فطرة اللَّه، قال الطبريّ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مصدر من معنىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأنّ معنىٰ ذلك: فطر اللَّه النّاس علىٰ ذلك اتّبعوا دين اللَّه الذي خلق الناس له، وسُمِّيت الفطرة دينًا؛ لأنّ الناس يُخلقون له، قال ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ وهو دين الإسلام، وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوة علىٰ الجدّ في أعمال الدين، وخص بالذكر، لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه، ودخل في هذا الخطاب أمّته باتفاق من أهل التأويل، وقوله تعالىٰ: ﴿حَنِيفًا﴾ معناه: معتدلًا مائلًا عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة.

واختلف العلماء في معنىٰ الفطرة المذكورة في الكتاب والسّنة علىٰ أقوال متعدّدة، منها: الإسلام، قاله أبو هريرة رضي الله عنه وابن شهاب الزهري وغيرهما، قالوا: وهو المعروف عند عامّة السلف من أهل التأويل» اهـ.

قلت: فعلىٰ ضوء ما مرّ بيانه بدليله وتعليله، فإن صفة الصبغة ومعناها انغماس المؤمن انغماسًا كليًّا في تعاليم الإسلام، دينه، شريعته، شعائره، وعراه، أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، والوقوف عند حدوده، قيام حلاله وحرامه، الولوج والدخول الكليّ في شعب الإيمان، في الأعمال الصالحة، فإنّ الإيمان قول وعمل ونيّة واتّباع السنة، صفة الصبغة الشرعية: كتاب اللَّه، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين، بالقيام بهذه الأصول الكلية الثلاثة، الصبغة الشرعية:

الاتباع وعدم الابتداع، الصبغة الشرعية: صحة المعتقد علىٰ مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، بصبغ المسلمين بمنهجهم، وطريقتهم، وسبيلهم، وهديهم، ومعتقدهم، وأخلاقهم، ومعاملاتهم، فكما يلج الثوب الأبيض في حوض الصباغ الأخضر أو الأصفر، أو الأحمر، أو الأسود، حتىٰ يتم تغييره تعبيرًا كليًّا حتىٰ لا يبقىٰ في الثوب ذرة أو مثقال منه علىٰ لونه الأول، فكذلك الموحّدون مع دين اللَّه والشريعة الإسلامية، بكل عراها من الإخلاص للَّه، والصدق، والأمانة، والعدل، والإنصاف، والإحسان، والأعمال الصالحة، قولًا وعملًا ومعتقدًا ونية، قال تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، وتطهيره بصبغه بكل هذه القيم العظيمة، بحيث لا يخرق الثوب بلون آخر من الخروج عن الصبغ العام، فلا يخرج عن جماعة المصبوغين بلون وصبغ آخر خارج عن السياق العام، والخروج عن السياق العام بكل ما حرّمه اللَّه ورسوله في هذا الدين، فمنها: الكذب، والغش، والخيانة، والظلم، والغصب، والسرقة، والابتداع، والفواحش، والمنكرات، والكبر والعُجب، والفسوق، والمعصية، لقد توجّب علىٰ كل مسلم ومؤمن، وعليك أن يتشرِّب ويتشبّع ثوُبك بحوض دينك لكل مكارم الأخلاق قال تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]؛ أي: دينك فطهر، وعملك فطهر، وقلبك وطهر، ونفسك فطهر، وفكرك فطهر، ومعتقدك فطهّر، فكانت الصبغة الشرعيّة: العموم الكلّيّ لذرَّات النسيج الثيّابيّ بالانغماس فيه والطرح المغمور، والدخول المعمور بعمار الكتاب والسنة حتىٰ تتمّ المنّة، ويسعد الموحّدون بفطرة اللَّه التي فطر الناس عليها، ذلك هو الدين القيّم الذي به تحيا العباد والبلاد، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوّة إلا باللَّه، والحمد للَّه ربّ العالمين.

كتبه

الباحث الدكتور عيد بن أبي السعود الكيَّال